الساحتين، الفلسطينية والعربية، بين السنوات ١٩٧٠ و ١٩٧٤؛ اذ ليس صحيحاً القول التالي كما نرى: «نظراً لتعدد منظمات المقاومة رغم تشابه برامج العديد منها» (ص ٢٠٩)؛ فأولاً، وقبل كل نقاش، ليس منطقياً التحدث عن كل مثل هذا التشابه، لأنه تشابه ـ اذا حدث ـ يلغي وجودها أصلاً.

وفي الفصول السابقة من الكتاب، كان التمايز واضحاً، أو ان الحرص على التمايز كان واضحاً. ولعل جوهر هذا التمايز يمكن تلخيصه بالتفريق البسيط والواضح بين برنامجين: يرى الاول ضرورة الحث على موضوعة الاستقلال الفلسطيني في سياق «استقلالات» عربية قائمة؛ ويرى الآخر ضرورة الاتصال المطلق بفكرة الوحدة العربية ونبذ استقلالية الكيان. ولا يخفى على أحد ان هذه الموضوعة بالذات هي التي لم تزل تحكم حالة الوعي الفلسطيني إلى الآن، وهي التي تحكم كل انقسام فيها، وكل تعارض، أو كل معارضة.

وعلى كل حال، فان شاغل د. سرحان يبدأ بموضوعة الوحدة الوطنية ؛ وهو لا ينكر، أبداً، ان ما يحكم هذا الشاغل لديه هو مفهوم السلطة والمعارضة، أو مفهوم اليمين واليسار السائد في الساحة الفلسطينية؛ فهو يريد أن يعتبر ان «مسيرة الوحدة الوطنية الفلسطينية عام ١٩٧٣ على الصعيد الداخلي لبعض فصائل المقاومة وعلى رأسها ' فتح ' » قد تراجعت. أي انها قد تراجعت بحكم برنامج «فتح» أو طرق عملها !

ويرى الكاتب ان منظمة التحرير الفلسطينية قد فشلت «نتيجة لأوضاع ذاتية ولظروف موضوعية في تحقيق الوحدة الوطنية، ولكنها نجحت، نجاحاً معقولاً، في التقدم على محور التوصل إلى ارضية سياسية مشتركة وإلى برنامج سياسي موحّد، انجزته في الدورة الثانية عشرة للمجلس عام ١٩٧٤» (ص ٢٢٢).

وهنا، نقول انه لا يجوز للباحث التيه في المفاهيم؛ اذ اين يقع مفهوم الوحدة الوطنية ؟ فاذا كان الفلسطينيون انجزوا اتفاقاً مكتوباً بشأن الارضية السياسية المشتركة، واذا توصلوا إلى برنامج سياسي موحّد، فما الذي يبقى من شأن الوحدة لم يتم انجازه بعد ؟ اذ كل وحدة هي وحدة أرضية وبرنامج، حتى بين فردين، والا ما هي الوحدة ؟ ما هي الوحدة الوطنية الفلسطينية، هذه المعضلة التاريخية التي لا يراد لها ان تحل ؟

انه تناقض مفجع في القول «فشلت منظمة التحرير... في تحقيق الوحدة الوطنية» على الرغم من انها انجزت وحدة الارضية والبرنامج. هنا تجدر الاشارة، بشأن الكتاب، إلى التناقض بين موضوعية البحث وعلميته وبين الاسقاطات الذاتية التي اجازها رئيس التحرير، وكان لا يجب ان يجيزها.

انتصارات الحروب

بروح فلسطينية شفافة يعالج د. عمر الخطيب حروب اسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية، في سنوات ١٩٧٨، ١٩٨١، ١٩٨٢، فيتجلى الفهم الدقيق لموضوعية البحث، فيتم استبعاد الاسقاطات والذاتية المهيمنة.

هو استعراض لما حدث في الاعوام الخمسة، لكنه اتصل، بشكل حثيث، بجهد حقيقي لاكتشاف قوانين الحركة العامة، بغرض اكتشاف المفاعيل التي تحكم توجهات العدو، كي يصبح ممكناً توظيفها في سياق هذا الصراع الهائل.

لا يحيد د. الخطيب، للحظة، عن قوانين حددها؛ فيرى واقع الاشياء وحركة القوى، فلا يبهت بالعرض المعلوماتي المجاني، من جهة، كما لا يغرق في ذاتية التشظي الفلسطيني كما الآخرين، فينجز، بالتالي، عملاً يستلهم الماضي لاكتشاف قوانينه لتوظيفها في الراهن. وتكون هي قانونية البحث العلمي.

نقاط للاهتمام

ان كتاب «منظمة التحرير الفلسطينية؛ جذورها، تأسيسها، مساراتها» له أهمية فعلية، على الرغم من العديد من النواقص والملاحظات، لكن هناك نقطتين بارزتين يجب الاشارة اليهما، لعله يكون من الممكن،